المحاضرة الثانية عشرة

أثر السرد العربي القديم في آداب الشعوب الإسلامية

"الأدب العربي والأدب الفارسي في العصر العباسي

هو أدب واحد كتب بلغتين

جان ريبكا

أولا. علاقات التأثر والتأثير بين الآداب:

إن ظاهرة التأثر والتأثير بين آداب ومعارف وعلوم الشعوب والأمم ظاهرة صحية، وسنة كونية، فالتاريخ حافل بمشاهد المثاقفة بين الحضارات، فكما أخذ العرب المسلمون علوم ومعارف الفرس والهند واليونان وتأثروا بها، كذلك أعلام الحضارة الغربية فهم انطلقوا وتأثروا بمعارف وفلسفات المسلمين.

والآداب من الحقول الإنسانية التي برزت فيها علاقات التأثر والتأثير، ولعل هذا هو ما جعل النقاد والدارسون يقيمون اختصاصا علميا لدراسة هذه العلاقات، فيما أصبح يعرف بالأدب المقارن، الذي يدرس "الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب، وكيف أثر كل منهما في الآخر"[1] بالتركيز على الألفاظ اللغوية والموضوعات الأدبية والأشكال الفنية... واشترط أهل الاختصاص في بيان علاقات التأثر والتأثير اختلاف اللغات "فاختلاف اللّغات شرط لقيام الدراسة الأدبية المقارنة"[2].

ولهذا ما نعرضه في هذه المحاضرة والمحاضرة الموالية هو في الأساس من صميم الأدب المقارن، لأننا نشتغل على السرود العربية (المقامات، السرد الصوفي، السرد الفلسفي، الحكايات الخرافية...) وكيف أثرت في آداب الشعوب الإسلامية أولا والشعوب الغربية ثانيا، لأن الأدب المقارن "يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر... سواء

[1] طه ندا، الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، 1975، ص20.

[2] المرجع نفسه، ص21.

تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب"[1].

فالأدب المقارن يبحث في مجالات متعددة أهمها[2]:

– موضوعات الأدب: المذاهب الأدبية، الأجناس الأدبية، موضوعات الأدب (كقصة المعراج الروحي بين أدباء العرب والفرس)، دراسة أدب الرحلات.

– موضوعات تتصل بالأدباء: دراسة كبار الأدباء العالميين الذين فاقت شهرتهم حدود بلادهم.

رأينا في المحاضرات السابقة، كيف أن العرب أبدعوا وتميزوا في بعض السرود القديمة كالمقامات، والحكايات والخرافات والسير والتراجم وأدب الرحلات، والقصص الصوفي والقصص الفلسفي إبداعهم وتميزهم جعل من هذه السرود محل إعجاب وتأثر من الشعوب الإسلامية كالفرس والترك والكرد... ونركز في هذه المحاضرة على:

ثانيا. أثر السرد العربي في الآداب الفارسية:

لا أحد يستطيع أن ينكر وجود علاقات تاريخية بين الشعبين العربي والفارسي فالمتصفح لكتب التاريخ القديم يدرك لأول وهلة أن العلاقات بين الشعبين العربي والفارسي، بسبب الجوار الجغرافي والمصير الواحد، قديمة قد الإنسان العربي والإنسان الفارسي في الوجود[3]، سواءً أكانت علاقات سلم وتعايش أم علاقات حرب وتقاتل، ونقطة تلاقي الشعبين كانت دولة الحيرة المجاورة لبلاد فارس.

علاقات التواصل ازدادت قوة بعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس، واعتناق الشعب الفارسي للدين الإسلامي، وقد علا شأنهم خاصة بعد قيام الدولة العباسية "حيث كان العنصر العربي الوحيد في هذه الدولة هو الخليفة، وكل أعوانه بعد ذلك من وزير وكاتب من أصل فارسي"[4].

---

[1] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص09.

[2] للتوسع ينظر، بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، ص25 إلى 29.

[3] المرجع نفسه، ص63.

[4] المرجع السابق، ص56.

هذه العلاقات التاريخية كانت سببا قويا في توطيد العلاقة بين الأدبين العربي والفارسي، ومن قنوات التواصل[1] التي أسهمت في توثيق هذه العلاقة:

1- العلاقات بين اللّغتين العربية والفارسية:

فالفرس بعد اعتناقهم الإسلام رأوا الحاجة ماسة لتعلم اللغة العربية فتعلموها على أساس أنها لغة الدين الجديد، مقابل إهمالهم اللّغة البهلوية (لغة الساسانيين ولغة الدين الزردشتي المنتشر في إيران قبل الإسلام)، ففي القرنين الأول والثاني للهجرة كانت اللغة العربية في إيران لغة دين ودنيا معًا... حتى بعدما حاول الإيرانيون إحياء لغتهم القديمة، فقد استعانوا باللّغة العربية، حتى قيل إن نسبة الألفاظ العربية في اللّغة الفارسية الجديدة ما يقارب السبعين بالمائة إلى جانب استخدامها الخط العربي لكتابة الفارسية.

2- الالتقاء بين الثقافتين العربية والفارسية:

نتيجة الحوار بين الشعبين واعتناقهما لدين واحد، حدثت علاقات تشابه بين الثقافتين العربية والفارسية، من تجليات ذلك الأفكار الصوفية والفلسفية المتشابهة بين الثقافتين.

3- التراث العربي في إيران:

معرفة علماء وأدباء إيران باللّغة العربية شجعهم على التأليف بها حتى يتمكن عامة سكان إيران من الفرس من معرفة علوم اللّغة العربية، والشريعة الإسلامية، فمن علماء اللّغة من أصل فارسي نذكر: سيبويه، الجرجاني، الزمخشري، السكاكي. وفي الأدب: بشار بن برد، أبو نواس، بديع الزمان الهمذاني وابن العميد. وفي الحديث البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. وفي الفلسفة ابن سينا، والرازي. وفي التصوف الغزالي.

[1] للتوسع في هذه القنوات العودة إلى كتاب بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، من ص70 إلى 75.

4- أصحاب اللسانين:

وهم من ألفوا بالعربية والفارسية معا، كالغزالي وابن سينا والرازي والشاعر المشهور الشيرازي (ت691هـ) ألف بالعربية والفارسية قصائد طوال.

5- حركة الترجمة بين اللغتين:

من عوامل الاتصال المستمرة بين الشعبين، الجهود التي قام بها المترجمون من وإلى اللّغتين، وعلى رأسهم زعيم المترجمين ابن المقفع.

6- الرحالة:

الجوار الجغرافي بين البلدين ساعد على تعدد الرحلات، هذه الرحلات أتاحت فرص الإطلاع على عادات وتقاليد الأمتين، كرحلة ابن بطوطة وما ذكره عن ديار ومدائن بلاد فارس، وكتاب (سفرنامه) الذي ألفه الشاعر الكبير (ناصر خسرو) وحديثه عن رحلته التي دامت سبع سنوات إلى العراق والشام والحجاز ومصر.

هذه القنوات وغيرها أسهمت في الاتصال بين الشعبين والأدبين الفارسي والعربي، وأوجدت فرصا عديدة للتأثير والتأثر بين الأدبين، وهذه بعض السرود العربية المؤثرة في الأدب الفارسي.

ثالثا. السرود العربية وأثرها في الآداب الفارسية:

أولا. المقامات:

المقامات أدب عربي خالص، وعلامة لغوية مخصوصة في تاريخنا الأدبي، لها من المواصفات السردية التي لم تجتمع في غيرها، فهي "حديث قصير من شطحات الخيال أو دوامة الواقع اليومي" تستند إلى راوٍ جوال وبطل أفاق غرضها الاقتدار على مذاهب الكلام... كما يذهب جمهور الدارسين "المستشرق براون، والناقد غنيمي هلال وشوقي ضيف...الخ" إلى أن بديع الزمان الهمذاني هو المؤسس والمبدع لهذا الفن ثم جاء من بعده الحريري فطوره وجمله، وامتد إنتاج المقامة في السرد العربي لعشرة قرون كاملة[1].

[1] للتوسع العودة إلى المحاضرة الخامسة من هذه المطبوعة.

وقد امتد أثر هذا الفن العربي الخالص إلى خارج إطار اللّغة العربية، فالمقامات الفارسية التي أنشأها القاضي حميد الدين البلخي (ت559هـ) كانت تقليدًا لمقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري.

وممن قال بهذا الرأي "كريم كشاورُزي" صاحب كتاب "هزار سال نثر پارسي" مقامات أبو بكر حميد الدين البلخي، جاءت في أربع وعشرين مقامة ومقدمة، وقد أنشأها تقليدًا لمقامات كل من بديع الزمان، وقاسم بن علي الحريري[1] وهو الرأي الذي أكده المستشرق "براون" مقامات البلخي "هي تقليد فارسي للمقامات العربية"[2].

ويمكن أن نجمل أثر المقامات العربية في المقامات الفارسية، ومقامات القاضي البلخي تحديدًا في هذه النقاط[3]:

1- الموضوع: مقامات البلخي عالجت موضوع الكدية والتسول ونصب الحيل لخداع الناس في أسلوب مرح، وهو الموضوع نفسه الذي دارت حوله مقامات الهمذاني والحريري في اللّغة العربية.

2- اللّغة: يستخدم "البلخي" ألفاظا عربية بل يذكر أحيانا جملاً عربية وسط نص فارسي كما في المقامة الثالثة (سبعة أسطر عربية).

3- الانفتاح النصي: مقامات البلخي تشبه مقامات الهمذاني والحريري في انفتاحها على الأنواع والأجناس الأدبية الأخرى كالشعر، والأمثال والحكم.

4- المنهج: سلك البلخي نهج الحريري بأن جعل لمقاماته مقدمة وخاتمة، كما رقَّم مقاماته من المقامة الأولى إلى المقامة الرابعة والعشرين.

5- الأسلوب المصنوع والميل إلى الألغاز عند البلخي يشبه إلى حدّ كبير ما صنعه الحريري في مقاماته.

هذا مع وجود اختلافات بين المقامات العربية والمقامات الفارسية، منها:

---

[1] كريم كشاورزي، مزار سال نثر بارسي، ج2، ص570. نقلا عن بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، ص223.

[2] المرجع نفسه، ص224.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص247 إلى 249.

1- البطل في مقامات "البلخي" يختلف من مقامة إلى أخرى كما أنه لم يصرح باسمه كما يختلف البطل من مقامة لأخرى على خلاف ما وجدناه في مقامات الهمذاني والحريري.

2- الميل إلى أسلوب المناظرة واضح في معظم مقامات البلخي، ففي المقامة الثانية المناظرة بين الشيب والشباب وفي الثامنة عشرة المناظرة بين الطبيب والمنجم، كما شاعت روح التصوف في مقامات البلخي.

ويجمل هذه الاختلافات محمد غنيمي هلال قائلا: "مقامات حميد الدين الفارسية تختلف عن المقامات العربية من وجوه، فشخصية المؤلف تحتل المكانة الأولى المباشرة فيها، فليس فيها راوٍ معين، وإنما يروي المؤلف أحداثه عن كثير من أصدقائه لا يذكر أسماؤهم، ثم إنه ليس في مقاماته بطل تتعدد مواقفه في مختلف المقامات كما في مقامات الهمذاني والحريري، بل إننا نرى في كل مقامة من مقاماته الفارسية بطلا يقوم بمغامراته ثم يختفي دون أن يبين عن اسمه أو مصيره... كما يتوسع في موضوعات المناظرات والتصوف..."[1].

ثانيا. السرد الصوفي:

كانت معجزة الإسراء والمعراج للنبي صلى الله عليه وسلم محط اهتمام كثير من العلماء والفلاسفة والأدباء، فقد استلهم الأدباء عامة والمتصوفة منهم خاصة من معراج النبي صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى معاني وأقاصيص، نذكر من هذه الأعمال:

- معراج أبي زيد البسطامي (ت261ه) أول معراج صوفي يصل إلينا.
- رسالة الطير لابن سينا (ت428ه).
- رسالة الطير لأبي حامد الغزالي (505ه).
- منطق الطير لفريد الدين العطار (ت627ه)

[1] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص227-228.

فالذخيرة الفارسية "منطق الطير" للعطار تأثر فيها برسالة الطير للغزالي، وهو ما أكده المستشرق الألماني "ريتر" في قوله: "إن رسالة الطير للغزالي كانت المصدر الذي استوحى منه العطار الفكرة الأساسية في منظومته منطق الطير..."[1].

وقد أجرى الباحث بديع محمد جمعة "دراسة مقارنة"[2] بين رسالة الطير للغزالي ومنطق الطير للعطار خلص منها إلى أن ثمة مواطن للاتفاق وأخرى للاختلاف بين الكتابين.

* من مواطن الاتفاق:

- التسليم بوجود إله ينظم هذا الكون.
- التسليم بصعوبة الطريق ووعورة دروبه.
- هلاك الكثرة ووصول القلة.

* أما مواطن الاختلاف فهي كثيرة، مما يؤكد أن العطار لم يكن مجرد مترجم أو ناقل لرسالة الطير للغزالي، بل هو مبدع ومولد لمعاني جديدة... إلى درجة أن أهل الاختصاص اليوم يعرفون رسالة منطق الطير للعطار أكثر من معرفتهم لرسالة الطير للغزالي.

ومن أوجه الاختلاف:

- رسالة الطير للغزالي كتبها نثرًا مع بعض الأبيات الشعرية، وهي رسالة قصيرة لا تتجاوز أربع صفحات، أما منطق الطير للعطار فهي أطول وكتبت شعرًا، إذ احتوت على خمسين وستمائة وأربعة آلاف بيت من الشعر "4650 بيتا"، مما جعلها الأوسع والأرحب في معالجة مدارج التصوف الإسلامي.

- العطار ذكر أسماء الطيور في حين الغزالي لم يذكر أسماء الطيور، كما نجد العطار يبرز دور (المرشد) في طريق الصوفي، فالمريدون لهم شيخ يرشدهم، أما الغزالي فلم يبرز دور المرشد في رسالته.

---

[1] بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، ص113.

[2] راجع المرجع نفسه، ص109 إلى ص164.

– الاختلاف في الهدف، فهو عند الغزالي هدف يحض على السلوك والإيمان، أما عند العطار فهو هدف صوفي فلسفي (وحدة الشهود وبعدها وحدة الوجود).

ومع هذا تبقى رسالة الطير للغزالي مصدر إلهام وإبداع لفريد الدين العطار في منطق الطير.

ثالثا. قصص الحيوان:

سبق وأن ذكرنا في المحاضرة –الثامنة– أن القصص على لسان الحيوان ارتبط بالحضارات القديمة (المصرية، الهندية، الفارسية...) فقد انتقل هذا الفن من الهند إلى الفرس ثم إلى العرب بفضل ترجمة كتاب (بنبج ثانترا) إلى اللّغة الفارسية (اللغة البهلوية)، ومنها نقل إلى العربية وأطلق عليه (كليلة ودمنة) وقام بالترجمة كما هو معروف ابن المقفع، وكان ذلك حوالي 133ه "ولولا هذه الترجمة العربية لما بقي كتاب كليلة ودمنة فقد ضاع الأصل السنسكريتي، كما ضاعت الترجمة البهلوية" فأصبحت الترجمة العربية هي الأصل لكل الترجمات الموجودة الفارسية، التركية، العبرية... وحتى اللّغات الأوربية الحديثة.

الترجمة العربية لابن المقفع هي الأصل الذي ترجم عنه إلى اللّغة الفارسية الحديثة، من هذه الترجمات نذكر:[1]

1– ترجمة البلهي نثرًا، والرودكي شعرًا وتمت في عهد الأمير الساماني نصر بن أحمد، ولكن هذه الترجمة فقدت.

2– ترجمة أبي المعالي نصر وتعرف باسم "كليلة ودمنة بهر امشاهي".

3– كليلة ودمنة، نظم قانعي الطوسي، انتهى من نظمها عام 658ه.

4– وفي نهاية القرن التاسع الهجري قام "حسين واعظ كاشفي" بعرض جديد لترجمة أبي المعالي، وغيّر فيها وبدل وأهداها إلى الأمير الشيخ أحمد سهيل أحد الوزراء في عهده ونسبها إليه فعرفت باسم (أنوار سهيلي)[2].

[1] ينظر، بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، من ص193 إلى 204.

[2] طه ندا، الأدب المقارن، ص149.

وفي ختام هذه المحاضرة نقول إن صلات التأثر والتأثير بين الشعوب الإسلامية واضح وجلي، رأينا بعضا من هذه التجليات في أثر السرد العربي القديم في الآداب الفارسية، خاصة في تأثير المقامات العربية في مقامات القاضي البلخي، وتأثير رسالة الطير للغزالي في منطق الطير للعطار وتأثير كليلة وكمنة لابن المقفع في نسختها العربية في آداب اللغة الفارسية الحديثة، والأمر لم يتوقف على السرود العربية، فالشعر العربي القديم له أثر بيّن في شعر كثير من الشعوب الإسلامية، من ذلك مجنون ليلى وأثرها في الأدب الفارسي.

لكن السؤال الذي يطرح الآن هل أثر السرود العربية توقف عند حدود الدول المجاورة التي اعتنقت الإسلام كالفرس والترك والكرد فحسب، أم إن السرد العربي امتد أثره إلى آداب الشعوب الغربية، هذا ما نعرفه في المحاضرتين الأخيرتين بحول الله وقوته.

رابعا. للتطبيق:

المقامة الثانية والعشرون (المقامة السكباجية)[*] من مقامات القاضي حميد الدين البلخي (الفارسي)

حكى لي صديق كان في القول أمينا وللأسرار كتوما، قال في وقت من الأوقات عندما كانت كسوة الصبي ذات بهاء، وكان العمر غضا طريا وكنت في نشوة غلواء هذا الغرور، أدور مع زمرة من الظرفاء، فكنت ألقى في كل يوم مضيفا بائس الوجه سمحه... حتى كان يوم أراد واحد من جماهير الدهر أن يجمع إخوان الصفا حول خوان السخاء... فاختار من الليالي أطولها، وفضلا من الأطعمة (السكباج) أوسمها، واستقر على أن تكون من عفرة معطرة... فلما رأى أصحاب تلك البشارة هذه البشارة، صانوا المعدات والأمعاء عن التلوث بالطعام لمدة أسبوع، وهبوا للالتفاف حول تلك المائدة... وأقبل المضيف الظريف يرفل في جبة لطيفة، فبسط فراشًا وأحضر طعاما... كان مرقه كوجه البخلاء أصفر، وقد زين بلب اللوز وطرز بالسكر العسكري، وطيب بالزعفران... فلما التفتت عين الشيخ بوعاء السكباح تملكت أعضاءه رعشة، وطلب في الحال الإذن بالارتحال، وأصر على الفرار عند ذلك أخذ كل الرقاق في التطلف به، وطال الجدال، فقال الشيخ فإذا لم يكن "من إظهار تلك الخبيئة، وإجلاء هذه

[*] هذا مختصر للمقامة السكياجية، يمكن العودة لها كاملة في كتاب: بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، من ص262 إلى 277.

الحقيقة... لابد من التخلي عن التنعم بتلك الليلة، ولابد من رفع هذه المائدة من أمامي... وكانت نهاية الحال بعد المقال أن صرنا على الجوع أياما ثلاثة... ورفعنا من أمامنا الخوان والسفرة، فذهبت القلوب في إثرها موجعة وشيعتها العيون دامعة.. ثم توجهوا نحوه وقالوا أيها الشيخ لقد تغضت حياتنا، فعوضنا عما فاتنا، قال الشيخ أن القصة التي لي مع السكياج لا يستطيع روايتها في عشر ليال طوال... (ثم راح يقص عليهم ما وقع له في مدينة نيسبور) قصصا أكثر فيها الوصف والإسهاب حتى مل الضيف وقرر الفرار، يقول فوضعت اليد على الباب وفتحت القفل المغلق، وأسلمت الجسد للقضاء والقدر، وانطلقت مسرعا، فلما لم يلحق بي المضيف الثرثار رغم الجري والإسراع... في العودة أوقفه حراس اللّيل وأودعوه السجن شهرًا، وبعد خروجه قال وعدت وعدًا مؤبدا ألا أجلس من منزل أمام وعاء (سكباج) قط.

أيها الأصحاب هذه قصتي مع السكباج وبعد هذا فالأمر لكم، فأصاب كل قلب من هذه الحال ألم كبير وأذى كثير، وقالوا يا كيمياء الألم إنك معذور لهذا الاضطراب وأقسمنا ألا نأكل من تلك ملعقة، وأكملنا الليلة بغير السكباج...".

المطلوب: اعقد مقارنة بين هذه المقامة والمقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذاني مبرزًا أوجه التشابه والاختلاف بينهما.